ALL !N مع جوردان إيزلي

ما بالكم خائفين هكذا؟

أسئلة سألها يسوع | الجزء السابع | مرقس ٤:٣٥-٤١

مقدمة

قبل نحو سنة، كنتُ على متن رحلةٍ إلى مؤتمر حين تكلّم الطيّار عبر مكبّر الصوت: «نقترب من نظامٍ عاصف؛ توقّعوا بعض المطبّات». تحوّلت تلك «المطبّات البسيطة» إلى النوع الذي يجعلك تعيد التفكير في كل قرارٍ اتّخذته في حياتك. هبطت الطائرة بعنف، وشهق الناس وصرخوا، وتطايرت المشروبات، وأنا شبه متأكّدٍ أن الرجل بجانبي سلّم حياته للربّ. لكن على الجهة الأخرى من الممرّ جلست طفلةٌ صغيرة، ربما في السادسة أو السابعة، بجانب أبيها، وبينما كان بقيّتنا يفقدون رباطة جأشهم، كانت هي تتّكئ على أبيها فحسب، تؤرجح قدميها، مرتاحةً تمامًا، وكأنها على مقعدٍ في الكنيسة مع كتاب تلوين. أذكر أنني فكّرتُ: «يا لها من صورةٍ جميلة للإيمان». لم تكن تفهم العاصفة ولا المطبّات ولا ما يفعله الطيّارون، لكنها كانت تعرف أباها، وكان ذلك كافيًا. ماذا لو وثقنا بأبينا السماويّ هكذا؟ ماذا لو، حين تنهار الحياة من تحتنا وتهزّنا المخاوف، اتّكأنا على يسوع بالهدوء نفسه والثقة نفسها؟

هذا هو جوهر السؤال الذي نتناوله اليوم. سأل يسوع أكثر من ٣٠٠ سؤالٍ في الأناجيل، لا لأنه احتاج معلومات، بل لأننا نحتاج تحوّلًا، وكل سؤالٍ يقصد أن يكشف أو يُنمّي أو يُغيّر شيئًا فينا. فحين يسأل يسوع تلاميذه: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هٰكَذَا؟ كَيْفَ لاَ إِيمَانَ لَكُمْ؟» (عدد ٤٠)، فهو يعرف الجواب مسبقًا؛ إنه يدعوهم إلى ثقةٍ أعمق. تذكّر السياق: يأتي هذا بعد يومٍ طويلٍ ومُنهِك من الخدمة، إذ علّم جموعًا كبيرةً حتى وعظ من قاربٍ. وعند المساء كان الجميع مُتعَبين، فقال: «لِنَجْتَزْ إِلَى الْعَبْرِ» (عدد ٣٥). لاحظ أمرًا مهمًّا: لم تأتِ العاصفة لأن التلاميذ كانوا خارج مشيئة الله؛ بل أتت لأنهم كانوا يطيعون يسوع. أحيانًا اتّباعه يقودك مباشرةً إلى مواقف تشدّ إيمانك، لا لأنه يريد أن يُخيفك، بل لأنه يريد أن يُشكّلك.

النقاط الرئيسية

١. الخوف يرتفع حين ننسى مَن في القارب

أبحروا مُتعَبين، و«حَدَثَ نَوْءُ رِيحٍ عَظِيمٌ، فَكَانَتِ الأَمْوَاجُ تَضْرِبُ إِلَى السَّفِينَةِ حَتَّى صَارَتْ تَمْتَلِئُ» (عدد ٣٧). لم تكن تموّجًا بسيطًا: يستخدم مرقس الكلمة اليونانية ميغاس، عاصفةً هائلة، بمستوى الإعصار، من النوع الذي يظلّ الصيّادون يتحدّثون عنه سنين. وأربعةٌ من هؤلاء التلاميذ كانوا صيّادين محترفين يعرفون هذا البحر كظاهر أيديهم، فإن كانوا يذعرون، فتأكّد أن الأمر كان خطيرًا. ومع ذلك «كَانَ هُوَ فِي الْمُؤَخَّرِ عَلَى وِسَادَةٍ نَائِمًا» (عدد ٣٨). كم يجب أن تكون مُتعَبًا لتنام وسط

عاصفةٍ تُعمّد القارب كل ثلاث ثوانٍ؟ لا تفوّت الرمز: ما يُرعبك لا يُقلق يسوع، وما يُوقظك ليلًا لا يُهمّه، وما يُغرقك لا يقوى عليه. نام لا لأنه لم يكترث، بل لأنه كان مُسيطِرًا تمامًا.

فأيقظوه بسؤالٍ يفهمه كل من عاش عاصفة: «يَا مُعَلِّمُ، أَمَا يَهِمُّكَ أَنَّنَا نَهْلِكُ؟» (عدد ٣٨). وهذا هو الأمر الحقيقيّ: خوفك مرتبطٌ بإيمانك، والخوف دائمًا ينمو حيث يصير الإيمان ضبابيًّا. لم يُخطئ التلاميذ في قراءة العاصفة —الأمواج كانت عالية حقًّا، والخطر كان حقيقيًّا حقًّا— مشكلتهم لم تكن سوء قراءة العاصفة، بل سوء توجيه تركيزهم. في مكانٍ ما بين الشاطئ ووسط البحر، نسوا مَن صعد إلى القارب معهم. أليس هذا حالنا؟ حين يسقط التشخيص، ويجفّ الحساب، وتنكسر العلاقة، وتصدمنا الأخبار، تتحوّل عيوننا من المخلّص إلى العاصفة، فيملأ الخوف المواضع التي كان يسكنها الإيمان. الإيمان لا يعني أنك لن تواجه العواصف؛ بل يعني أنك لن تواجهها وحدك. تلك الطفلة لم تهدأ لأن المطبّات توقّفت؛ بل هدأت بسبب مَن كان جالسًا بجانبها. ثقتك في العاصفة لا علاقة لها بحجم العاصفة، بل كل العلاقة بحجم مخلّصك.

٢. الخوف يملك حين نفترض أن يسوع لا يستجيب

من أكثر اللحظات المُهمَلة في هذا المقطع ليست العاصفة، ولا الذعر، ولا حتى المعجزة: بل سوء التفسير. حين أيقظ التلاميذ يسوع، لم يقولوا: «هل يمكنك أن تساعد؟» ولا «افعل شيئًا!» ولا «نحن نثق بك!». قالوا: «يا معلّم، أما يهمّك؟». هذه ليست مشكلة عاصفة. فسّروا صمته غيابًا وهدوءه لامبالاة، وهذا تشويهٌ خطيرٌ لقلب الله. لكننا نفعل الشيء نفسه: حين تتراكم الفواتير، وحين يعاود الطبيب الاتّصال، وحين يبتعد أولادنا، وحين يتزعزع زواجنا، وحين لا يتدخّل الله بالسرعة التي نريد أو بالطريقة التي نريد، نهمس بالسؤال الجريح نفسه: «يا ربّ، أتهتمّ بي أصلًا؟».

اسمع هذا: استجابة يسوع غير الفوريّة لم تكن نقص شفقة؛ بل كانت فرصةً للإعلان. لم يكن يتجاهلهم؛ بل كان يسمح لهم أن يروا ما لم يكونوا ليروه أبدًا بلا العاصفة. أحيانًا يدع الله العاصفة تهيج لتتوجّه عيناك إلى مخلّصك. نصلّي على نحوٍ مختلف حين تبدأ المطبّات؛ ونتشبّث بيسوع بحميميّةٍ أعمق حين تذكّرنا الظروف كم نحتاجه. أحيانًا لا يُهدّئ الأمواج من حولك لأنه يحاول أن يُهدّئ الخوف الذي فيك. في هذه القصّة لم يكفّ يسوع عن محبّتهم في العاصفة، ولم يتركهم في العاصفة، ولم يفقد السيطرة في العاصفة؛ بل عرف فقط ما لم يعرفوه: أن العاصفة لن تُغرق ما كان الآب قد أرسله.

٣. الخوف ينحسر حين نتذكّر قدرته

قام يسوع في ذلك القارب المُغرَق بالماء وكلّم العاصفة كطفلٍ في نوبة غضب: «اُسْكُتْ! اِبْكَمْ». وفي الحال «سَكَنَتِ الرِّيحُ وَصَارَ هُدُوءٌ عَظِيمٌ» (عدد ٣٩). لحظةٌ فوضى، والتي تليها هدوء. لكن انظر ما يقوله مرقس بعد ذلك: بعدما هدأ البحر، «خَافُوا خَوْفًا عَظِيمًا» (عدد ٤١) —حرفيًّا، خافوا خوفًا هائلًا، الكلمة نفسها المستخدَمة للعاصفة الهائلة. كانت العاصفة عنيفةً ومُهدِّدةً للحياة، لكن ليس ذلك ما هزّهم أكثر؛ ما هزّهم أكثر كان يسوع. في جملةٍ واحدة رأوه أوضح من أيّ وقتٍ مضى، ومُبتلّين وقلوبهم تخفق همسوا: «مَنْ هُوَ هٰذَا؟ فَإِنَّ الرِّيحَ أَيْضًا وَالْبَحْرَ يُطِيعَانِهِ!» (عدد ٤١). كل يهوديٍّ في ذلك القارب كان يعرف المزامير —الله وحده يحكم البحار، الله وحده يُهدّئ الفوضى، الله وحده يأمر المياه— فحين هدّأ يسوع عاصفةً عنيفةً بثلاث كلماتٍ هادئة، اتّضح الأمر: عرفوا مع مَن يتعاملون.

العواصف في بحر الجليل لم تكن تهدأ هكذا؛ عادةً كان الماء يظلّ يهيج طويلًا بعد توقّف الريح. لكن حين تكلّم يسوع، لم يكن هناك خفوتٌ بطيء، بل سلامٌ فوريّ. هذه هي النقطة التي يريد مرقس أن تراها: لم يكن هدف العاصفة فقط أن يُظهر ما يقدر يسوع أن يفعله، بل أن يكشف مَن هو يسوع حقًّا. أحيانًا يُهدّئ العاصفة لا ليجعلك أكثر راحةً بل ليجعل نفسه أكثر وضوحًا؛ وأحيانًا يُزيل العائق لا ليمنحك راحةً فحسب بل ليُذكّرك بسلطانه. إن تتبّعت عواصف حياتك بما يكفي، فكلّها تُعيدك إلى السؤال نفسه: «مَن هو هذا؟». مَن هو يسوع هذا الذي يطيعه المرض، وتهرب منه الشياطين، ولا يقدر الموت أن يمسكه، ويُسكِت العاصفة؟ حين تبدأ تجيب عن هذا السؤال، يبدأ الخوف يُرخي قبضته: الخوف ينحسر حين يُعلَن يسوع.

٤. الإيمان يرتفع حين نثق بمن في القارب

حين رأى التلاميذ يسوع على حقيقته، تغيّر شيء. كان قد هدّأ العاصفة خارجهم، لكنه كان أكثر اهتمامًا بتهدئة العاصفة التي في داخلهم، فسأل السؤال الذي في قلب هذا المقطع: «مَا بَالُكُمْ خَائِفِينَ هٰكَذَا؟ كَيْفَ لاَ إِيمَانَ لَكُمْ؟» (عدد ٤٠). إنه لا يوبّخهم ولا هو خائبٌ فيهم؛ بل الأمر أشبه بـ: «بعد كل ما رأيتموه واختبرتموه معي، أما زلتم تظنّون أن هذه العاصفة أكبر منّي؟». كان دعوةً لطيفةً إلى الثقة. لأن الإيمان ليس التظاهر بأن العواصف غير موجودة ولا «التظاهر حتى تنجح»؛ الإيمان هو أن تتذكّر مَن في قاربك. الإيمان هو أن تتّكئ على حضور يسوع كما اتّكأت تلك الطفلة على أبيها: لا لأنها فهمت المطبّات، بل لأنها وثقت بمن كان يحملها.

ربما ذلك هو السؤال الذي يسألك يسوع اليوم، لا ليُخزيك، بل ليجذبك أقرب. يسأل: «ما بالك خائفًا هكذا؟» —لا «كيف تجرؤ أن تخاف؟»، بل «إلى ماذا تنظر حتى صار أكبر عندك منّي؟». «كيف لا إيمان لك؟» —بعبارةٍ أخرى: «هل تثق بي، حتى هنا، حتى الآن، حتى في هذا؟». العواصف تأتي وتذهب، لكنّ يسوع يبقى؛ العواصف تهزّك، لكنّ يسوع يُمسكك. ربما الأمواج عالية وإيمانك يبدو صغيرًا، وربما كان القلق عاليًا والخوف منتصرًا، لكنك لست وحدك ولستَ غارقًا، لأن يسوع في قاربك. الصوت نفسه الذي هدّأ بحر الجليل يقدر أن يُهدّئ قلبك، والقدرة نفسها التي أوقفت العاصفة تقدر أن تُثبّت نفسك، والحضور نفسه الذي حمل التلاميذ إلى العبر الآخر سيحملك أنت أيضًا. حين تعرف مَن في قاربك، يفقد الخوف صوته، ويرتفع الإيمان من جديد، وتُدرك أنك ستصل إلى العبر الآخر، لا لأن العاصفة صغيرة، بل لأن مخلّصك عظيم.

أسئلة للتأمل

1. «الخوف يرتفع حين ننسى مَن في القارب». ما العاصفة التي تواجهها الآن، وكيف تحوّل تركيزك من المخلّص إلى العاصفة؟
2. افترض التلاميذ أن صمت يسوع يعني أنه لا يكترث. أين جُرّبتَ لتهمس «يا ربّ، أتهتمّ بي أصلًا؟»، وكيف قد يستخدم الله ذلك التأخير ليُعيد توجيه عينيك إليه؟
3. انحسر خوف التلاميذ حين رأوا حقًّا مَن هو يسوع. كيف ستتغيّر طريقة حملك لخوفك هذا الأسبوع لو أجبتَ بنفسك عن سؤال «مَن هو هذا؟»؟